مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

أخلاقيات الفعل التواصلي عند هابرماس

صفاء قاسمي
باحثة مغربي

2025

بحث محكم
قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية
2025-06-26

جميع الحقوق محفوظة © 2025

أخلاقيات الفعل التواصلي عند هابرماس

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى إبراز الحاجة الملحة لاعتماد العقل التواصلي المنفتح على الأغيار عبر التواصل معهم بواسطة اللغة، عند احترام القواعد العقلية والكونية التي طرحها هابرماس، وغايتها تجاوز العقل الأداتي الذي نتج عن تمركز المجتمع الحديث حول الذات؛ وذلك من أجل تحقيق الغاية التي وضعها هابرماس من صياغته لذلك العقل، وهي خلق الانسجام والتناغم بين جميع الأفراد، ليؤسس مفهومه الشهير «الفضاء العمومي» الذي يساهم في تشكل السلطة السياسية عبر التجارب التواصلية التي قام بها الأفراد، فهو بهذا المعنى يساهم في القضاء على الهيمنة التي أنتجتها العقلانية الأداتية، لفائدة الجماعات المتمكنة من إنتاج الأدوات التقنية التي تفرض بواسطتها نظرتها الخاصة للعالم. كما أن كونية تلك القواعد العقلية والأخلاقية تجعلها شاملة لجميع التفاعلات الإنسانية الممكنة داخل العالم المعيش، منها التفاعلات التي تحدث ضمن المجال التربوي وما يكون فيها من مظاهر للهيمنة والصراع. لذلك، يجب التحلي بالتزامات عقلية متمثلة في «أخلاق المناقشة» عند الدخول في جميع العمليات التواصلية القائمة داخل المؤسسة التربوية؛ أي محاولة خلق فضاء تربوي منفتح يمكن من تنمية الكفايات التواصلية والمنهجية والاستراتيجية والقيمية أيضا.

مقدمة:

إن القول بأن «الإنسان سيد المخلوقات» وله القدرة على مواجهة كل تهديدات المحيط الخاص به، انطلاقا من استعماله الأداتي للعقل في ارتباطه بالعقل التقني المؤدي إلى إنتاج أدوات تستخدم في الحفاظ على نفسه وأقرانه من الأفول، وهو ما نتج عنه العنف والصراع والهيمنة ضمن المجتمع المعاصر؛ نتيجة استعمال تلك الأدوات في السيطرة على الفئات الأخرى، ليصبح العالم المعاصر في حاجة إلى عقل منفتح يذيب كل تلك الصراعات السلبية، وهو العقل التواصلي الذي يحكم أي فعل تواصلي عقلاني عند الالتزام بعدة قواعد أخلاقية للمناقشة، وهو ما تم توضيحه ضمن العنصر الأول المعنون بـ «**في الحاجة إلى العقل التواصلي**» في المحور الأول. أما العنصر الثاني المسمى بـ «**حدود أخلاقيات التواصل**»، فيضم معظم الانتقادات التي وجهت إلى النظرية التواصلية التي طرحها هابرماس، وبلغت حد الازدراء والسخرية من تلك القواعد المثالية للتواصل التي يظن أنها سوف توحد العالم بمجمل اختلافاته الجزئية، وبينوا مدى نسبية هذه القواعد وعدم قدرتها على تحقيق «الإجماع»، خاصة ليوتار الذي قال بسيادة التنازع ولحظية الاتفاق خلال أي مناقشة.

أما المحور الثاني، فيشمل بعض «**الانعكاسات التربوية لفلسفة التواصل عند هابرماس**» بداية بالعنصر الأول المعنون ب «**أخلاقيات المناقشة والتربية النقدية**» الذي أوضح فيه أهمية «أخلاقيات المناقشة» كنموذج يمكن الاعتماد عليه لتنمية الحس النقدي لدى المتعلمين؛ أي مساعدة المتعلم في بناء عازل نقدي بينه وبين كل المعارف التي يتلقاها بشكل يومي، فهي كفاية مستعرضة بين جميع المواد الدراسية تطمح لتحقيقها كل من المنظومة التربوية والمجتمع المدني ككل، ويمكن تفعيلها عند التزام كل من المدرس والمتعلم بقواعد المناقشة من بينها(حقيقة مضمون القول، الصدق، التبرير، ...) ويليه العنصر الثاني الذي خصص لتوضيح الترابط القائم بين «**أخلاقيات المناقشة والتواصل التربوي الفعال**» من خلال إبراز مدى أهمية أخلاقيات المناقشة كنموذج تواصلي فعال؛ لأنه يقوم على علاقة تفاعلية متساوية وحرة ومسؤولة بين جميع الفاعلين التربويين، من أجل تجاوز النمط السائد للتواصل التربوي القائم على علاقة عمودية، وإبادة كل مظاهر الهيمنة التي يحوزها طرف دون آخر؛ لأن كل ممارسة تواصلية تمر عبر ممارسة الفضيلة عند إدماج أخلاقيات المناقشة ضمن هذه العملية التواصلية كالحرية والتبرير.

أولا: في الحاجة إلى العقل التواصلي وحدود أخلاقيات التواصل

1- في الحاجة إلى العقل التواصلي

ارتبط العصر الحديث بداية من ديكارت بالمجال العلمي، خصوصا تلك التحولات والتطورات التي عرفها المجتمع الغربي التي تشمل التغيرات التاريخية والسياسية والأدبية والعلمية، التي أعادت الاعتبار للإنسان كذات عاقلة متمكنة من كل خطر قد يحذوها أو يجابهها ضمن هذا العالم، سواء تهديد الطبيعة للوجود الإنساني بواسطة الزلازل (لشبونة، الحسيمة، مراكش، ...) التي جعلت الإنسان أكثر إبداعا؛ لأنه قام بتطوير أدوات لمنع حدوث الانهيارات والحفاظ على حياة الساكنة؛ لأن الإنسان وجد في هذا العالم معرض لجميع أنواع المخاطر، كما يذكر في «أسطورة بروميثيوس» سارق النار، أن كل الكائنات منحها الإله وسائل للدفاع عن بقائها كالفرو والأنياب والمخالب، وترك الإنسان وحده يجابه مخاطر العالم باللاشيء؛ وذلك ما جعله يحاول دائما تطوير أساليب الدفاع عن نفسه من أجل الحفاظ على بقائه، إلى حين أصبحت التحولات العلمية مذهلة عند مقارنتها بالنسخة السابقة القريبة منها، وظهور مفهوم «العقل الأداتي» هو «**أكبر دليل على ظاهرة التمركز حول العقل العلمي-التقني، ويبين كيف أن حركة التطور العلمي في عصر الأنوار أدت إلى ظهور هذا العقل**»[1]. ويوضح هابرماس من خلال هذا المفهوم الذي ظهر بموجب المجتمع الحديث المتمركز حول الذات، بوصفها ذاتاً عاقلة ومفكرة قادرة على الإنتاج والإبداع داخل سياق معين خاص بها. فهو تمركز جعل العقل أداة لفرض السيطرة الإنسانية على الطبيعة، دون الانتباه لتبعات هذه الرغبة الجامحة في السيطرة على كل الأشياء التي تهدد وجود الإنسان، وبالتالي جعلت كل الموجودات مسخرة في يد ملك الكون الذي استعمل هذا العقل بشكل غائي؛ أي رهين بمدى إنتاجيته وما يقدمه، بوصفه مجرد وسيلة يتم من خلالها صنع أشياء بالشراكة مع «العقل التقني»، ليثمر هذا كله ما يسميه ماكس فيبر بـ«العقلانية الأداتية» التي تعني «**مجموع الوسائل أو القواعد التقنية الكفيلة بتحقيق غاية معينة كان قد تعلق وبذل جهودا مضنية لتحقيقها**»[2]. فإن هذه العقلانية ستغدو محاولةً لجعل العقل البشري رهينًا بإنتاج أدوات للسيطرة على الطبيعة، نتيجة الاستعمال الأداتي لهذا العقل، فهذا النمط من الاستعمال للعقل قام بتسهيل حياة الإنسان إلى حد لا يمكن تصوره من قبل، ويظهر ذلك عند ارتباط العقل الأداتي الذي ينظر للعالم وللإنسان بشكل اختزالي، على أنه مجرد أداة لخلق غايات معينة متمثلة في بعض الوسائل التي تصنع عند ارتباطه بالعقل التقني، الذي ذهب إلى أبعد من ذلك، وأغرق نفسه في مهمة البحث عن كيفية إنتاج أدوات صناعية تساعد على توفير حياة سهلة للإنسان، عند إقدامه على صنع آلات تقوم بعدة وظائف كان الإنسان يقوم بها سلفا، إلى غاية حدوث الثورة البيوتكنولوجية التي تجمع بين مجال البيولوجيا والتقنية؛ وهو خلط أنتج ما لا يتوقع الإنسان أن يحدث، حيث وصل إلى حدود صناعة الحياة الأبدية وإنهاء فكرة الموت.

---

1. أبو النور حسن، أبو النور حمدي، يورجين هابرماس الأخلاق والتواصل، إشراف: أحمد عبد الحليم عطية، المكتبة الفلسفية، التنوير للطباعة والنشر، 2012، بيروت-لبنان، ص. 134

2. المرجع نفسه، ص. 136

فالعقلنة الغربية هي مجال مناسب تنامت فيه هيمنة العقل الأداتي، لتصبح منتجة لمعظم الثورات التكنولوجية التي عرفها العصر الحديث، كما يذهب هوركهيمر إلى أن «**العقل الأداتي هو العقل المهيمن في المجتمعات الرأسمالية الحديثة التي فقد فيها العقل دوره كملكة فكرية وتم تقليصه إلى مجرد أداة لتحقيق أهداف معينه، وبالتدرج فقد العقل رؤيته للهدف وأصبح مجرد أداة لتوفير الوسائل، وأدى ذلك إلى فقدان العقل للقدرة على إدراك الحقائق في ذاتها حيث اصبح كل شيء مجرد وسيلة**»[3]. فنجد العقل الأداتي أساسا ارتبط بالمجتمعات الرأسمالية التي تهتم بمسألة الإنتاج، الذي لا يتحقق إلا باستعمال العقل كوسيلة لصنع أدوات يتم طرحها في السوق، لتصبح قيمة الأشياء رهينة بالربح الاقتصادي الذي تقدمه، فكان لهيمنة العقل الغائي مجال خاص للتنامي أكثر فأكثر، حيث أصبح هذا العقل خادمًا لغاية تقنية؛ أي الإنتاجات المادية للسيطرة على العالم، وأنتجت ما يسمى بـ «تشيؤ Objectification» العقل الإنساني من خلال الترابط بين العقل الأداتي والعقل التقني؛ مؤديا إلى تشيؤ كل العلاقات الإنسانية التي أصبحت مرتبطة بالنتائج المحصلة منها؛ لأنها امتزجت بمنطق المجال الاقتصادي الذي يهتم بنتائج الفعل، للنزوح نحو علاقات إنسانية مبنية على المصالح التي نحصل عليها من خلال تلك العلاقات، كما ذكر محمد سبيلا «**إن صورة العلاقات الأكثر صميمية بين الكائن الإنساني والآخر الإنساني، وهي العلاقات العاطفية والوجدانية والتجاذبية بين الناس، هي بالضبط نسخة أخرى (إنسانية طبعا) من العلاقات الاقتصادية القائمة في السوق، التي تحدد بصورة حتمية جميع العلاقات القائمة في المجتمع وتنسجها على منوالها**»[4]، فهي علاقات إنسانية تظهر بنفس نمط العلاقات الاقتصادية التي تهتم بالإنتاج داخل المجتمعات الرأسمالية.

بالإضافة إلى أن العقلنة المتصلة بالغايات ساهمت في تطوير مظاهر الصراع، حيث أصبحت مشاهد العنف مألوفة في العالم المعاصر، سواء العنف المادي المتمثل في مجمل التصرفات التي يقوم بها الإنسان بغاية السيطرة على الآخر والحفاظ على بقائه، كسباق الدول نحو التسلح وامتلاك أجود ما صنع في مجال صناعة الأسلحة، ليظهر العنف بشكل متداول ومتعايش معه؛ ولعل وسائل التواصل الاجتماعي هي دليل على وجود العنف المألوف داخل المجتمع المعاصر؛ لأن هذه الوسائل بالرغم من أنها حظيت بتسمية «التواصل»، إلا أنها تجسد كل مظاهر الصراع والعنف والتنافس بين مستعمليها، المتمثل في تبادل العنف اللفظي بشكل دائم عبر فيديوهات يتم نشرها عبر هذه الوسائل، وكذا تداول الأشرطة التي تحتوي على مشاهد العنف والإهانات الموجهة للإنسان، سواء العنف المادي الذي ذكرناه سابقا، و«**أضف إلى ذلك ما يسمى اليوم بالعنف الرمز ي المسلط على رقاب العباد بواسطة وسائل صناعة وتكييف الرأي العام المسماة بأجهزة الاتصال الجماهيري، حيث تتساقط على رأس كل فرد يوميًّا مئات المعلومات والأخبار والكلمات الموجهة والموجهة. ويبتلع يوميا عشرات الكيلومترات من الأشرطة المصورة**»[5]. فكل الوسائل التي صنعها الإنسان بغرض التواصل بين جميع

3. المرجع نفسه، ص. 133

4. محمد سبيلا، مدارات الحداثة، الطبعة الأولى 2009م، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ص ص. 25-24

5. المرجع نفسه، ص. 201

الناس، أصبحت حاملة لجميع أنواع الصراع والسيطرة، بواسطة ترويض الرأي العام لمصالح جماعة معينة دون غيرها. وبالرغم من كون التقنية ساهمت في تحرير الإنسان من الضرورات والصعوبات التي تطال حياته؛ إلا أنها أصبحت تسيطر عليه، وتظهر هذه السيطرة على نحوين حسب محمد سبيلا: أولا السيطرة الداخلية المتمثلة في «**تنمية الأدوات القادرة على تكييف الفرد فكريا بواسطة وسائل الإعلام أو وسائل صناعة الرأي العام وفي تطوير وتقوية أدوات المراقبة والتحكم في الرقاب والضبط بواسطة الإعلاميات، حيث يصبح لكل مواطن رقم في الحاسوب يضم سجل حسناته وسيئاته منذ يوم ميلاده إلى يوم يبعثون. وما أجهزة الكشف عن الكذب وأجهزة الاستراق وقراءة ما في الصدور إلا مظاهر لقدرة التكنولوجيا الرهيبة على الإسهام في السيطرة على الإنسان واستعباده وتسخيره**»[6]. هذا في ما يتعلق بالسيطرة التي تمارس على الإنسان، الذي أصبح مقيدا بالتقنية ومستلبا بواسطتها من كل النواحي الخاصة به؛ فهي سلبت منه الحياة الطبيعية والصحية التي كان يعيشها الإنسان قبل الثورة التكنولوجية التي عوضت كل عاداته، بأخرى مرتبطة بكثرة استعمال التقنية (كالاستعمال المفرط للأجهزة التقنية الذي أدى إلى ظهور عدة حالات مرتبطة بضعف البصر نتيجة تأثر بالأشعة الزرقاء، ...)، وثانيا نجد السيطرة الخارجية «**ففي إطار تقسيم العمل الدولي الحالي يصبح التقدم التقني أداة سيطرة على مصائر قارات ودول بأكملها. فهذه الدول تسخر كل مواردها الطبيعية والاقتصادية والبشرية لاقتناء المنتجات التقنية. والتفاوت التكنولوجي مصحوب بسيطرة سياسية واقتصادية للبلدان التقنية على البلدان الأقل تطورا**»[7]. وفي هذا البعد ترتبط السيطرة التقنية بمجال أشمل من الأول، خصوصا عند دخول البعد السياسي والاقتصادي للبلدان فيه، الظاهر في استغلال التفاوت المتعلق بامتلاك الأدوات التكنولوجية، التي تساعد في السيطرة على البلدان الأقل تقدما من حيث التطور التقني. ففي ظل هذه الهيمنة التقنية، وكل مظاهر العنف والصراع. كيف يمكن إذابة وتغييب هذه العناصر بواسطة التواصل؟

لقد أكد هابرماس على ضرورة التواصل بين جميع الأفراد، ليحل محل الهيمنة والصراع الذي يعرفه العالم المعاصر؛ نتيجة الاستعمال الأداتي للعقل من أجل السيطرة على الطبيعة والإنسان معا، وتعويضه بمفهوم «العقل التواصلي» الذي صاغه هابرماس، بعد إدانته «العقل الأداتي» الذي يكون معرفة عن الطبيعة وفق علاقة مباشرة بموضوع البحث، بل في المقابل يجب إقحام النشاط التواصلي بوصفه نشاطا مفتوحا، تقوم به كل ذات قادرة على الكلام والتفاعل مع محيطها بواسطة اللغة. فهدف هابرماس من صياغة هذا العقل: هو الاحتفاظ بالعقلانية مع إضفاء بعد التواصل عليها؛ بغية خلق نوع من التفاعل والتذاوت بين جميع الأفراد، وتجاوز كل مظاهر التواصل المشوه بالأيديولوجيا؛ فهابرماس أراد «**عقل تواصلي يتجاوز الذات ليكون نسيجا من الذوات المتواصلة التي تتجاوز ذاتيتها**»[8]. فلا بد لكل تواصل أن يكون متجاوز لكل مظاهر الذاتية؛ لأنها تجعل الذات منحصرة على نفسها دون أن تتفاعل مع أقرانها؛ لأن الطبع الاجتماعي للإنسان يفرض عليه

6. المرجع نفسه، ص. 206

7. المرجع نفسه، ص. 206

8. أبو النور حسن أبو النور حمدي، يورجين هابرماس الأخلاق والتواصل، مرجع سابق، ص. 142

الدخول في حوارات ونقاشات مستمرة مع الآخرين، ولتجنب ذلك الاصطدام والصراع الذي قد يحدث بينهم من أجل إرضاء الكبرياء الطبيعي لكل واحد. نجد هابرماس اقترح «العقل التواصلي»؛ لأنه يسمح بالتواصل مع الآخرين، ولأننا نتجاوز من خلاله تلك الذاتية المميتة لكل إبداع قد يكون في مسار نقاشنا مع من نتوجه لهم بالقول، غير أن هذا التجاوز للذات يتطلب من المحاورين القيام ببعض التضحيات المتساوية فيما بينهم، لتنتهي الممارسة الحجاجية بإجماع عقلي وفق قواعد عقلية أخلاقية (الصدق، المساواة، المصداقية، ...)، التي تسهم في إنجاح هذا التواصل والتذاوت بين الجميع؛ لأن القواعد في الأصل متساوية بينهم والالتزام بها ضروري جدا لخلق التواصل الفعال، الذي لا يحدث إلا عن طريق اللغة بوصفها أفضل الأنواع التي يمكن أن يتم بها هذا التواصل؛ لأنها تقوم بعدة وظائف مختلفة ، كما حدد لها «**رومان جاكوبسن R.Jakobson ست وظائف أساسية تلخص مستويات التخاطب من جهة، أو مستويات الممارسة من جهة ثانية، وهي: الوظيفة التعبيريةFonction expressive، والوظيفة المرجعيةFonction référentielle، والوظيفة التأثيرية Fonction conative، والوظيفة الشعريةFonction poétique، والوظيفة ما بعد اللغوية أو الوظيفة الواصفةFonction métalinguistique، والوظيفة التحفيزيةFonction phatique**»[9]. فهي عنصر غزير بعدة وظائف وتشمل عدة مناحي، وهو ما يجعل التواصل الذي يتم بواسطتها أفضل أنواع التواصل؛ فيكون للغة بهذا المعنى دور مهم في إنجاح عملية التواصل بين جماعة معينة؛ بالانتباه إلى قصدية كلام القائل وتحليل كلامه وتأويله، كي لا يقع المحاور أو المرسل في سوء الفهم من طرف الآخر؛ لأن سوء الفهم يشكل عائق لهذه التجربة التواصلية؛ كما يوضح لنا مثال بيرس، الذي شرح من خلاله مسألة فهم أفعال الكلام ومقاصده، التي قد لا تكون مذكورة في العبارة التي نقولها، بل نستنتجها من القول، وهو كالتالي: «**تصور أنني استيقظت يوما قبل زوجتي وبمجرد استيقاظها سألتني: كيف هو الحال اليوم؟ هذا السؤال هو الدليل، وتأويله المباشر هو الزمن «هذا اليوم»، وتأويله الحركي هو لزوم رؤيتي للنافذة لمعرفة الحال**»[10]. فهذا أفضل مثال يمكن ذكره لتوضيح أن الدلالة اللغوية لا تكفي في العملية التواصلية؛ لأنها قد تجعلنا نخطئ في فهم مقاصد العبارة؛ كما أنها لا تهتم بالأفعال المصاحبة للكلام أو المقصد الموجود ضمنيا في القول. لهذا، وجب إقحام الجانب التداولي عند محاولتنا فهم أو تأويل فكرة ما أو تدخل معين، لكي نزيح كل الحواجز التي قد تقف في طريق تحقيق الإجماع العقلاني، الذي يعتمد على قواعد ديمقراطية بين الجميع.

ويكون هذا العقل التواصلي منفتحا ليجعل عملية التواصل ممكنة؛ أي يسمح بحدوث التذاوت والتفاعل بين جميع الفاعلين، بشكل متساوي وفق شروط أو نماذج تداولية التي نجد لها أثر بارز عند هابرمارس، عند ذكره لمسألة العالم المعيش الذي نستمد منه مشروعية كل الأفكار التي نعبر عنها، أو آرائنا المختلفة التي يتم الإجماع حولها، فهو اعتراف لها بالمشروعية من طرف جماعة معينة، أو العالم المعيش الذي يتغير باستمرار

9. يورغن هابرماز، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ترجمة وتقديم: عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، 1431ه-2010م، الجزائر العاصمة-الجزائر، ص. 9

10. عبد الإله بوغابة، بشرى العروصي، الإطار التداولي في اللسانيات المعاصرة، الطبعة الأولى، 2006، المطبعة السريعة، القنيطرة-المغرب، ص. 25

نتيجة تغير الحقائق التي لا يمكنها أن تكون؛ لأنها ليست كيانات في العالم. كما يذكر هابرماس في كتابه المعرفة والمصلحة، أن «**الحقائق لا تكون لأن الحقائق ليست كيانات في العالم، وإنما ترابطات بين الأقوال على مستوى المحاججة. لكن ما يكون هي موضوعات التجربة العائدة إلى الفعل والتجارب المؤكدة أو الآراء التي تعود إلى مجالات تجربة ومجالات فعل تفريقية**»[11]. ومن ثم، سوف يكون هناك ارتباط دائم بين تفاعلاتنا الحجاجية، والحقائق الناتجة عبر هذه الممارسة التي يمنحها العالم المعيش المشروعية للاستمرار أكثر، إلى حدود بروز حقائق أخرى خلصنا إليها انطلاقا من أقوال المحاججين.

فالتواصل له أهمية قصوى في جميع مجالات الإنسانية، لما يخلق من تفاعل بين جميع الأفراد داخل مجال معين، وفي نظر هابرماس هو «**الصوت الوحيد القادر على توحيد عالم فقد كل مرجعياته لنتواصل، ولنتواصل بالأدوات والتقنيات التي تضعف التواصل نفسه هذا هو جب التناقض الذي وضعنا فيه**»[12]؛ ذلك أن التواصل له دور لا غنى عنه في خلق الانسجام والتذاوت بين جميع الناس، بغض النظر عن اختلافاتهم الجزئية؛ لكن من الممكن أن يتعرض هذا التواصل إلى ما يجعله تواصلا مشوهًا، وغارقًا في كل أنواع الصراع والعنف. لذلك، وجب تقنينه بعدة تقنيات للمناقشة الأخلاقية المذكورة سابقا؛ لتفادي حصول نوع من السيطرة والهيمنة خلال النقاش؛ غير أن هذه الهيمنة تتجاوز النقاش بين جماعات معينة إلى المجال السياسي، كما يذكر هابرماس «**واليوم تتأبد السيطرة ويتسع مداها، ليس فقط بواسطة التقنية، وإنما كتقنية، وهذه تقدم للسلطة السياسية المتنامية، التي تأخذ في ذاتها مجالات الثقافة كلها، الشرعية الكبرى. في هذا العالم تقدم التقنية أيضا العقلنة الكبيرة للاحرية الإنسان، وتبرهن الاستحالة «التقنية» في أن يكون الإنسان مستقلا، بشكل حياته ذاتيا**»[13]. فالتقنية تجاوزت وظيفتها الأداتية والاستعمالية، فيما يخص تسهيل حياة الإنسان من خلال صنع أدوات معينة، وأصبحت هي نفسها تحمل وتكرس أيديولوجيات من طرف الدول الأكثر إبداعا في هذا المجال؛ بغاية السيطرة على دول لم تحظ بنوع من التقدم التقني بعد، كما تساهم التقنية في السيطرة على الرأي العام وترويضه عند جمع معطيات الأفراد وتوجيههم؛ بغاية الميل إلى الأفكار والآراء التي تكون في مصلحة المهيمن (سواء من خلال الإعلام أو مواقع التواصل الاجتماعي...) للمساهمة في صنع الرأي العام. ولذلك، اقترح هابرماس التواصل معتمدًا على قواعد أخلاقية؛ لتجاوز هذه الهيمنة الموجودة في العالم المعاصر، وبلوغ عالم قادر على التفاهم والانسجام، ومتمكن من صنع آراء قائمة على إجماع عقلاني بين جميع الأفراد. وهي فكرة أدخلها هابرماس إلى المجال السياسي أيضا بواسطة مفهوم «الفضاء العمومي L'espace public»، بما هو «**ميدان يجتمع فيه المواطنون لتبادل الآراء ومناقشة ونقد القضايا السياسية، فهذا المجال العام لم يكن جزءا من المجتمع المدني فقط، بل هو وسيطا بين هذا المجتمع المدني والدولة**»[14]؛ فهو مجال يمكن جميع الأفراد من المناقشة الأخلاقية التي تهدف

11. يورغن هابرماس، المعرفة والمصلحة، ترجمة: حسن صقر، ومراجعة: إبراهيم الحيدري، الطبعة الأولى، 2001م، منشورات الجمل، كولونيا-ألمانيا، ص. 377

12. أبو النور حسن أبو النور حمدي، يورجين هابرماس الأخلاق والتواصل، مرجع سابق، ص. 246

13. يورغن هابرماس، العلم والتقنية كـ«إيديولوجيا»، ترجمة: حسن صقر، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، 2003م، كولونيا-ألمانيا، ص. 47

14. أبو النور حسن أبو النور حمدي، يورجين هابرماس الأخلاق والتواصل، مرجع سابق، ص. 194

إلى إجماع عقلاني بين المتفاعلين، وليس الإجماع حول رأي بدافع السلطة الممارسة من جهات معينة. فبدل أن يكون هناك تأثير على الرأي العام، أصبح الرأي العام يصنع من خلال تذاوت أخلاقي وعقلاني، دون وجود سيطرة أيديولوجية معينة تفرضها السيطرة السياسية على الذهنية العامة؛ أي تشكيل نوع جديد من السلطة التي تدفع بالأفراد إلى اختيار مصالحهم المبنية على نقاش حر وعقلاني، بهدف وصول الإجماع على الرأي الذي يحظى بالمقبولية العقلية. وبهذا نتمكن من صنع «رأي عام» قائم على قواعد أخلاقية، عند المساهمة في مناقشة كل الآراء السياسية؛ لنعرف أي رأي سوف يحظى منهم بالإجماع المبرر؛ ليكون للمجتمع المدني دور في خلق الآراء السياسية ومناقشتها ونقدها، كما يصبح لهم الحق في تسيير وتوجيه الدولة، بواسطة السلطة التي تتشكل ضمن تلك الجماعات المكونة من الأفراد التي تصنع الرأي العام.

نخلص في نهاية الأمر إلى أن هابرماس حاول تجاوز العقل الأداتي الذي يهتم بمدى إنتاجية العقل، ويرى كل الأشياء وسائل تؤدي إلى غايات معينة وليست غايات في ذاتها؛ ونظرا لارتباطه بالعقل التقني أصبح يعمل على صنع أدوات لتسهيل الحياة، لكنه تجاوز ذلك ليصبح أساس تشكل أيديولوجيات تسيطر على العالم، وتسهم في استنزاف وتدمير الثروات الطبيعية في سبيل ذلك، وهو ما نجد له ردًّا عند ماركيوز الذي اقترح موقفا بديلا لنهب الطبيعة، أو ما يسمى بـ «التقنية الجديدة» التي يقصد البحث الأخوي عن الطبيعة، عندما ننسب إلى الحيوانات والنباتات، وحتى الصخور ذاتها ذاتية ما، ونحاول التواصل معها بوصفها ذواتاً أيضا. وهذا ما يدعو له الاتجاه المسمى بـ «العقلنة الخضراء» أو «إيكولوجيا العقلنة»، كما نجد هابرماس اقترح مفهوم «العقلنة التواصلية» التي تسهم في صنع الرأي العام داخل مجال عمومي، معلنة الابتعاد عن كل أنواع السيطرة على الذهن لغايات ومصالح معينة، حيث تكون للجماعة المناقشة قدرة على توجيه قرارات الدولة؛ أي أن تكون فاعلة في المجال السياسي؛ وليست منفعلة مع الوضع المهيمن.

2- حدود أخلاقيات التواصل

إن كل النظريات السائدة في العالم دائما ما تواجه نقدًا متواصلًا، كالانقلاب الذي أحدثه الفكر الفلسفي المعاصر على العصر الحديث، وبما أن هابرماس يذكر فكرة المقبولية العقلية للدلالة على فكرة ما تستحق أن يحدث الإجماع حولها؛ إذن فهو إجماع قابل للتغيير ما دام وفق قواعد عقلية أخلاقية كالصدق، المصداقية، الحقيقة، المعقولية، ... بغية بلوغ حقيقة قابلة للنقد. فنظرية الفعل التواصلي أيضا لم تسلم من النقد، بل كان حظها يسير في ذلك، ومعظم النقاد الذين أعادوا النظر في نظرية التواصل الهابرماسية كانوا تلاميذه الذين ينتمون للمدرسة النقدية، منهم سيلا بنحبيب التي تنتمي إلى الجيل الثالث من المدرسة نفسها، وتذكر أن **«نظرية أخلاقيات التواصل خداع ليس إلا، فالافتراضات المقدمة من طرف هابرماس تتضمن مفهوما محدودا وخاصا للمساواة، وأن الرؤية العالمية للأخلاق فيه خاضعة لأفق ثقافي وتاريخي معينين هو تاريخ وثقافة**

الغرب وسجين حضارتها ومنطقتها»[15]. إن هذا القول يوضح مدى قصور أخلاقيات المناقشة التي ارتكزت حول فكرة المساواة بين المتحاورين؛ لأنها حسب سيلا بنحبيب مجرد مفهوم محدود للمساواة المحصورة داخل النقاش بين مجموعة ما، وتخص مجال معين دون تعميمه على عدة مجالات مغايرة. كما أن هذه الأخلاق الكونية التي يقول بها هابرماس لا يمكن أن تتحقق؛ لأنها نتجت عن عقل غربي ولا يمكن أن تصبح كونية؛ نظرا إلى ارتباطها بتصور غربي لمفهوم العقل، دون الأخذ بعين الاعتبار شمولية العقل الإنساني؛ لكي نبني على أساسه قواعد أخلاقية كونية وشاملة لجميع الإنسانية. فأخلاقيات المناقشة عند هابرماس تعرضت للكثير من الازدراء والسخرية؛ خاصة عند استعماله للغة بشكل محدود، حيث جعلها وسيلة في أيادي المتحاورين للحصول على الإجماع والتوافق، فهذا الأخير قد يجعل المحاور يحاول بلوغ هذه الغاية دون الالتفات لمسألة التواصل، بالرغم من تركيزه على أهمية التذاوت خلال الممارسة الحجاجية التي بموجبها نفضي إلى الإجماع؛ إلا أن هذا النموذج قد يتعارض مع فكرة التذاوت؛ لأن المناقشة قد تصبح مجالا للصراع والعنف بين المتحاورين، عند دفاعهم عن تصورات متعارضة بغاية الإجماع والاتفاق حول أفكارهم وليس من أجل التذاوت.

كما أن الحجاج الذي يهدف إلى الإجماع انطلاقا من اللغة، خاصة قاعدة الصدق التي تهدف إلى جعل القول واضحا وموجزا دون تغليفه بالمغالطات، هي المسألة التي سوف تجعلنا في حاجة إلى «لغة مثالية» تمكننا من ذلك الإجماع المنشود؛ لأن اللغة العادية تتميز بالتنوع وبالقدرة على استيعاب عدة تأويلات. وأيضا المصداقية التي بموجبها يتم طرح عبارات متداولة يكون لها حضور في محيط معين؛ وهما مسألتان نسبيتان تفضيان إلى الإجماع، بالإضافة إلى القواعد الأخرى؛ لذلك وجب البحث عن لغة مثالية تفي بغرض التفاهم؛ لأن اللغة العادية كثيرا ما توقعنا في سوء الفهم، كما يذكر مانفريد فرانك «**يعوض الإجماع هنا تلك الحاجة الماسة إلى منزلة-عليا أو إلى تلك «اللغة الفوقية» لدى ليوتار. يجب علينا إنهاء حالات النزاع من-داخل-الحوار، لكوننا نفتقر إلى معيار للصدق يتخطى حدود الحوار**»[16]. فلا يكون هناك إجماع إلا بحضور «اللغة المثالية» التي تسهل ذلك التواصل والتذاوت الهادف إلى الإجماع؛ لكنها تبرز مشكلة وصعوبة في التطابق مع التواصل الذي يحدث في حياتنا اليومية، حيث تصبح المناقشة في ظل ارتباطها باللسانيات مجرد حرب أهلية لغوية بين المتحاورين، لإرضاء هاجس بلوغ الإجماع؛ لأن اتخاذ هذا الأخير هدفا أساسيا؛ قد يجعل المتحاورين يتلاعبون باللغة للنزوح نحو أفكارهم وتتويجها بالإجماع. كما من الممكن أن تستعمل كل وسائل العنف الرمزي من خلال اللغة بغاية التأثير فيهم؛ في حين أن الاقتناع وجب أن يكون عقليا عند اقترانه بقواعد عقلية أخلاقية. بالرغم من الانتقاد الذي تعرض له هابرماس خصوصا مسألة اختيار قواعد أخلاقية انطلاقا من تبرير أخلاقي؛ أي اختياره اللجوء إلى الأخلاق نفسها؛ لأن المعايير التي قدمها هابرماس (الصدق، الحقيقة، المصداقية،

15. أبو النور حسن أبو النور حمدي، يورجين هابرماس الاخلاق والتواصل، مرجع سابق، ص. 272

16. مانفريد فرانك، حدود التواصل الإجماع والتنازع بين هابرماس وليوتار، ترجمة وتقديم وتعليق: عز العرب لحكيم بناني، 2003م، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، ص. 108

الصلاحية، ...) هي معايير قبلنا بها فقط لأنها أخلاقية، بل يجب أن تكون مبررة كي نستطيع الإجماع حولها والالتزام بها، إذا ما نظرنا إلى هذا الأمر وفق ما جاءت به نظرية هابرماس التواصلية حول الحقيقة والتبرير.

واجهت النظرية التواصلية نقدا كثيرا من عدة جوانب، كالحديث عن مسألة الإجماع أو المعايير الأخلاقية أو استعمال اللغة. على غير «مانفريد فرانك» الذي حاول أن يظهر التناقض الموجود ضمن فكرة «التنازع» عند ليوتار المقترحة كبديل لفكرة «الإجماع» عند هابرماس. فكل ذلك النقد الموجه ليورغن يفيد أنه قدم تصورًا مثاليًّا للفاعلية التواصلية؛ «**أي أن تصوره للتواصل وللنظرية الإجماعية للحقيقة تتميز ببعد يوتوبي واضح، لدرجة أنه يحيل في كثير من الأحيان إلى مشروع أكثر مما يشير إلى واقع بعينه، ويتحدث عن أخلاق يتطلع إلى أن تصاغ في معايير وعلاقات**»[17]. فهذه النظرية كانت مجرد أفكار متعالية عن الواقع، ومن الصعب تطبيقها على أرض الواقع؛ لأنها تحاول صنع عالم مليء بالسلام على الدوام. في حين أن الصراع هو من يتسم بالديمومة، ولا يمكن تغييبه لأنه أساس الإبداع والابتكار والتطور. كما أن الاكتفاء بالتجانس الذي يدعو له هابرماس كان مبالغا فيه، فليس هناك مجموعة تستطيع أن تصل إلى ذلك التجانس، وإن توجت به لن تستطيع البقاء في لحظة «الإجماع»، بل ستكون لحظة عابرة ضمن لحظات الممارسة الحجاجية. فأغلب الناظرين لهذه الفكرة، ألا وهي فكرة الإجماع من خلال القواعد الأخلاقية اعتبروها مجرد «مشروع»، ولا يمكن تحقيقه في مجال الممارسة، وإن كانت جماعة صغيرة مكونة من عدد محدود من الأفراد. أما المجتمعات المعقدة هي المجال الأكثر صعوبة لتحقيق هذا التذاوت؛ نظرا لتعقيد العلاقات المتواجدة داخله، كما يرى ريمون بودون أن تطبيق هذه النظرية يتطلب «**إيجاد حمولة عملية لهذا النموذج، فإنه يمكن القول، بأنه «يترجم جيدا ما يجزي، مثلا، في حلقة دراسية، تجمع مجموعة صغيرة من علماء الرياضيات. وفي هذه الحالة يصح القول بأن لكل المشاركين حرية المناقشة**»»[18]؛ لأن مجال الرياضيات هو مجال يحتكم لقواعد دقيقة وواضحة جدا؛ مما يجعلنا نتمكن من إجراء مناقشة مبنية على قواعد عقلية ومنطقية تنبذ كل مظاهر اللاعقلانية؛ عند تمكن كل المشاركين من الحصول على نفس القدر من الحرية، لتكون هذه المناقشة لها حظ وفير في التتويج بنهاية إيجابية أو إجماع عقلاني.

أما إدماج أخلاقيات المناقشة في جميع المجالات، فهو مسألة صعبة جدًّا؛ لأننا لا نستطيع تحقيق الإجماع في كل المجالات بدون تدخل الذاتية والمصالح الشخصية كمجال السياسة والأخلاق، فهذه النظرية قد تصدق على موضوعات المناقشة التي تعتمد على موضوعات قابلة للتحديد المنطقي كالرياضيات. وبهذا تكون هذه النظرية أبعد ما تكون عن الواقع؛ لأنها تطمح إلى صناعة واقع لا يحدث إلا في مكان متعالٍ عن الواقع؛ أي عالم منسجم لا يحذوه أي نوع من الصراعات. فهو ربما كانت له نظرة متفائلة كثيرا؛ لأنه ما من عالم يستطيع الابتعاد عن الصراع والعنف، بوصفهما محركات للتاريخ الإنساني، وغيابهما يؤدي إلى عالم مستقر لا يصنع شيئا

17. محمد نور الدين أفاية، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة نموذج هابرماس، أفريقيا الشرق، الطبعة الثانية، 1998، الدار البيضاء-المغرب، ص. 247

18. المرجع نفسه، ص. 249

جديدا؛ فهو عبارة عن مشروع كما هو الحال بالنسبة إلى مشروع «السلام الدائم» الذي جاء به كانط، حيث لا يمكن تحقيقه على أرض الواقع لأسباب كثيرة، منها «**أولا؛ لأنه يفترض قدرة متساوية لك على للكل، ثانيا؛ لأنه يفترض سرعة لا محدودة لاكتساب وتداول المعلومات ولأنه يفترض في المستوى الثالث، غياب ظواهر الاستخدام والتحالف والاستراتيجيات داخل الجماعة التواصلية. ورابعا؛ لأنه يفترض أن الجميع له نظرات وتمنيات واضحة ومتميزة لجميع الموضوعات، ثم إنه يجهل بشكل عجيب، المشكل الكلاسيكي المتعلق بتغيير الاختيارات والآراء الفردية إلى اختيارات وآراء جماعية، ولأنه أخيرا؛ يجهل التمييز الكلاسيكي مع ذلك منذ أرسطو بين موضوعات المناقشة التي ترجع إلى الرأي والموضوعات التي ترجع إلى الاستدلال أو التجربة**»[19].
ومن هذا القول لصاحبه بودون؛ نستنتج أن الأسباب التي تعيق مشروع هابرماس، هي، أولا افتراض القدرة على التواصل بشكل متساوي، في حين نجد أن الواقع يعارض ذلك؛ لأن ليس جميع الأفراد لديهم القدرة والاستعداد للدخول في تجربة تواصلية، كما أن هذا التوافق لا يحدث بشكل سهل وسريع؛ وإنما قد نبلغ مدة طويلة من النقاش والمحاجة في حالة تنازع دون بلوغ نقطة الاتفاق؛ وحتى إذا بلغنا نقطة الاتفاق تكون مجرد حالة مؤقتة؛ نظرا لعدم تحقق التحالف داخل الجماعة، كما أن عدم بروز آراء وأفكار واضحة يعيق عملية التواصل؛ لأن التلاعب بالمحاجة من خلال استخدام اللغة يؤدي إلى تواصل محدود. بالإضافة إلى أن أخلاقيات المناقشة تعرضت لمشكل الخلط بين الآراء التي تصبح موضوعا للمناقشة، والموضوعات التي تبنى من خلال التجربة والاستدلال؛ لأن الموضوعات التي نستطيع بواسطتها الوصول إلى اتفاق، يجب أن تكون مبنية بشكل موضوعي، وليس انطلاقا من نظرة شخصية عفوية؛ لأننا لا نستطيع تحويلها إلى اختيارات وآراء جماعية؛ نظرا للذاتية التي تحملها منذ بداية تشكلها؛ أي إنه لا يمكن الإجماع حولها لأنها أصبحت أمرا مشكوكا فيه.

كما يذكر ليوتار إن التأكيد على ادعاءات الصلاحية وعلى الحوار البرهاني، يفترض شيئين: «**الأول هو أن كل المتكلمين يمكنهم الاتفاق على القواعد... الصالحة بشكل كلي، لكل ألعاب اللغة في حين أن هذه الألعاب تكون متنوعة وترجع إلى قواعد تداولية متعددة. أما الافتراض الثاني، فيتمثل في كون الإجماع هو غاية الحوار. ولقد بينا من خلال تحليل التداوليات العلمية، أن الإجماع ليس إلا حالة من حالات المناقشة وليس غاية**»[20].
فادعاءات الصلاحية عند هابرماس تتطلب وحدة المعنى، ووحدة القواعد، ووحدة التداولات؛ كي يكون الإجماع عقليا، وهذا صعب التحقق؛ لأن كل هذه العناصر تتغير باستمرار من فرد إلى آخر، ومن جماعة إلى أخرى؛ وقد يكون الإجماع مؤسسا على مصالح جماعة معينة، وليس بغاية الإجماع ذاته الذي نصل له عبر التذاوت. وهنا يطرح سؤال العدالة داخل المناقشة التي تغيب عند حدوث الإجماع؛ لأن ممارسة الحجاج الذي يتوج بالاتفاق لصالح فكرة معينة بعيد عن ممارسة فكرة العدالة. بذلك وجب التأكيد على مسألة العدالة في العصر الحالي؛ لأن الفكرة التي تنعم بالإجماع تمنح السلطة للشخص الذي أدلى بها؛ وفي هذا الصدد يظهر التلازم الذي يحدث بين «المعرفة» و«السلطة»؛ كما جاء به ليوتار عند قوله «**من يقرر ماهية المعرفة، ومن يعرف ما يتعين اتخاذه**

19. المرجع نفسه، ص. 248
20. المرجع نفسه، ص. 249

من قرارات»[21]؛ إذ يوضح ذلك أن كلًّا من مسألة المعرفة والسلطة مرتبطين ببعضهما البعض؛ لأن أي إقرار بالمعرفة التي يملكها شخص ما؛ هي سبب كافي يجعله يتخذ عدة قرارات مهمة. فالمعرفة بهذا المعنى لا تكون وسيلة لبلوغ الحقائق، وإنما هي تجمع للقوة كوجود دعم لصانعي الأسلحة مثلا، ليس من أجل مكانة هؤلاء الصانعين العلمية والمعرفية بتخصصهم، وإنما بغاية استخدام إنتاجاتهم في فرض السلطة على الآخرين، أو فرض السيادة المعرفية لمفكر ما؛ بغية ترويض الرأي العام لصالح اختيارات دولة معينة؛ الشيء الذي يجعل معارف هؤلاء المثقفين مجرد وسائل لفرض السلطة المعرفية التي يملكونها، سواء لدوافعهم الشخصية أو الجماعية.

ومن ثم، فإن نظرية هابرماس لأخلاقيات التواصل كانت بادرة طيبة؛ لأنه حاول توحيد الأخلاق الإنسانية التي تشذرت في عدة مرجعيات (الدين، والقانون، ...) إلى أخلاق عملية متمثلة في أخلاقيات المناقشة؛ لكونها أكثر عملية من كل تلك النظريات الأخلاقية المثالية التي لا تحظى بحضور في الواقع الملموس كفلسفة كانط الأخلاقية، بل تجاوزها من خلال صياغة أخلاق عملية متمثلة في القواعد العملية التي جاءت بها إتيقا المناقشة. فهي كانت قواعد أخلاقية تؤطر هذا النقاش أو التواصل من خلال اللغة المتمثلة في الصدق، المصداقية، لكن بالرغم من أهمية هذا الإنتاج الفلسفي المتعلق بفلسفة التواصل، نجده واجه الكثير من النقد بخصوص تلك القواعد، التي اعتبرها البعض غير كافية وشكك في مدى تحقيقها لاتفاق عقلي موضوعي. كما نجد من قال إن هابرماس بالغ كثيرا في تركيزه على مسألة الانسجام والتذاوت، وتلقى نقدا وفير الحظ من عند ليوتار الذي قال بلحظية هذا الاتفاق؛ لأنه مجرد حالة ضمن الممارسة الحجاجية. أما التنازع هو السائد ضمن أي مناقشة. وبهذا المعنى، يكون القول بالإجماع والتواصل الفعال ضمن الجماعة، انطلاقا من تلك المعايير هو مجرد مشروع يحاول هابرماس تحقيقه، ولا يبتعد عن فلسفة كانط الأخلاقية النظرية التي ظن أنه تجاوزها بواسطة أخلاقيات المناقشة.

21. المرجع نفسه، ص. 250

ثانيا: الانعكاسات التربوية لفلسفة التواصل عند هابرماس

1- أخلاقيات المناقشة والتربية النقدية

إن أخلاقيات المناقشة هي «**تقليد فلسفي ألماني ارتبط بفلسفة التواصل. ففي اللغة الألمانية Diskursethik تتألف من Ethik التي تعني أخلاق أو أخلاقيات وDiskurs التي تعني في المعجم الألماني مناقشة أو نقاشا وليس خطابا Discours ، حيث تتبادر إلى الذهن لأول وهلة. ولهذا، يجب أن نفهم مصطلح Diskursethik لدى هابرماس بمعنى أخلاقيات للمناقشة وليس للخطاب، في علاقة وثيقة مع عقلانية كونية؛ أي إن العقل بنية منطقية تتيح اعتماد البرهان والحجة ضرورة لأي تأسيس أو تقعيد لما يختاره الإنسان من نظم**»[22]. بالنظر لهذا التعريف نجد أن أخلاقيات المناقشة هي عبارة عن نظرية وليدة لفلسفة التواصل؛ إذ بها تهتم بالأخلاق التي تحكم جميع العمليات التواصلية أو المناقشات الفعلية، ولا يقصد بها الخطاب الذي تقاس نجاعته بمدى تأثيره على الآخرين، بل هي مناقشة تعتمد على أخلاق عقلانية كونية تقوم عليها جميع العلاقات الكائنة بين المناقشين، كما حددها هابرماس ضمن نظريته التواصلية.

أما التربية النقدية، فيتضح معناها من خلال التفصيل في المفاهيم المكونة لها، وأولها التربية Education، بما هي «**لفظ مشتق من الكلمة اليونانية (ducere) للدلالة على قيادة الأطفال وتوجيههم. أما في اللغة العربية، فقد ولد لفظ «تربية» مشحونا بالدلالة على النمو والحركة والزيادة والارتفاع**»[23]؛ فالتربية بهذا المعنى تفترض وجود حالة أولية، وجب تطويرها لاحقا بفعل التربية والتوجيه، لتصبح في حالة أفضل من التي سبقتها.

أما القدرة على النقد، فتعني القدرة على امتلاك «**الحكم المتبصر-، والتمييز-التفكير النقدي يتطلب فصلا بين الصالح والطالح. وبالرغم من ذلك، فإن هذا الفهم ما يزال يعتريه قصور حول نقطه حاسمة. كيف يمكن فعليا تحديد درجة المصداقية الحقة لخطاب بغاية تحديد قدر الثقة (أو بالمقابل قدر الشك أو حجب الثقة) الذي من المناسب تبنيه إزائه؟**»[24].

كثيرة هي الأفكار التي تتوارد على مسامعنا في الحياة اليومية، لذلك وجب التحلي بالحس النقدي اتجاهها؛ لأنه يجعل الشخص قادر على التمييز بين الصالح والطالح من كل ما يتلقاه يوميا. وبهذا يكون التفكير النقدي ذا أهمية قصوى في تسيير حياتنا اليومية؛ لأن كل مجتمع يكون تواقا إلى تحقيق مجتمع متميز بالحس النقدي. ونجد ضمنهم المجتمع المغربي الذي يعبر عن مدى رغبته في التميز بالفكر النقدي عند ممارسة النقد الذاتي. ويظهر الاهتمام بالحس النقدي داخل المجتمع المغربي على المستوى التربوي أيضا، الذي يشمل

22. محمد عبد السلام الأشهب، أخلاقيات المناقشة وفلسفة التواصل، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2013م، عمان-الأردن، ص ص. 39-38

23. ميلود توري، أسس التكوين التربوي، مطابع الرباط نت، 2016م، الرباط-المغرب، ص. 15

24. أوليفيي سارتونار، التفكير النقدي، والثقافة العلمية، والممارسة الفلسفية الجديدة، ترجمة: عبد الله كسابي، مؤمنون بلا حدود، 2023م، ص ص. 7-6

عدة وثائق تربوية كالرؤية الاستراتيجية للإصلاح (2015/2030) الصادرة عن المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، وشمل هذا الإصلاح عدة مجالات تربوية للرقي بالمدرسة المغربية، و«**التي يأتي اكتساب مهارات التفكير النقدي في مقدمتها بالنسبة لجميع الشعب، بما فيها شعبة العلوم الشرعية من خلال توفير التعليم العتيق مسالك وبرامج للتكوين تدمج الراغبين من طلبتها في أسلاك التربية والتكوين في مراعاة للكفايات والمستوى الدراسي المحصلين، وتتيح تنمية الفكر النقدي والفضول المعرفي والقدرات الإبداعية لدى المتعلمين وتشجع الانفتاح على الثقافات**»[25]. وكذا حضورها ضمن «التوجيهات التربوية وبرامج تدريس مادة الفلسفة لسلك التعليم الثانوي التأهيلي» الذي ذكرت فيه الكفاية المتعلقة بامتلاك مبادئ الفكر النقدي في مختلف أبعاده، بوصفها كفاية مشتركة مع مواد أخرى غير الفلسفة. فمسألة التفكير النقدي كانت عبارة عن مسار تربوي مهم مرت منه المنظومة التربوية المغربية، بداية بإسهام الملك محمد السادس ضمن خطاباته السامية، القائلة إن «**الأمر لا يتعلق، في سياق الإصلاح المنشود، بتغيير البرامج، أو إضافة مواد أو حذف أخرى، وإنما المطلوب هو التغيير الذي يمس بنسق التكوين وأهدافه؛ وذلك بإضفاء دلالات جديدة على عمل المدرس لقيامه برسالته النبيلة، فضلا عن تحويل المدرسة من فضاء يعتمد على المنطق القائم أساسا على شحن الذاكرة ومراكمة المعارف، إلى منطق يتوخى صقل الحس النقدي، وتفعيل الذكاء، للانخراط في مجتمع المعرفة والتواصل**»[26]. فنجد أن المغرب يهتم بتنمية الحس النقدي لدى الأفراد، خاصة في مجال التربية بهدف الارتقاء بالفعل العمومي. لكن السؤال المطروح دائما، هو الكيفية التي يمكن من خلالها تحقيق هذه الكفاية، التي تتطلب «**إعادة النظر في مقاربتنا، وفي الطرائق المتبعة في المدرسة، للانتقال من منطق تربوي يرتكز على المدرس وأدائه، مقتصرا على تلقين المعارف للمتعلمين، إلى منطق آخر يقوم على تفاعل هؤلاء المتعلمين، وتنمية قدراتهم الذاتية، وإتاحة الفرص أمامهم في الإبداع والابتكار، فضلا عن تمكينهم من اكتساب المهارات، والتشبع بقواعد التعايش مع الآخرين، في التزام بقيم الحرية والمساواة، واحترام التنوع والاختلاف**»[27]. حسب هذا القول، وجب النظر إلى التعلم، بما هو عملية بعيدة عن تلقين المعارف وحشوها في الذاكرة؛ فهو عملية تهتم بتنمية المهارات والقدرات في شخصية المتعلم، وعلى رأسها الحس النقدي الذي يحظى بأهمية بالغة في مجال التربية؛ مما يجعل مسألة النظر في كيفية تحقيقه واكتسابه بالنسبة للمتعلمين ضرورة ملحة. فأي كيفية يمكن من خلالها أن نعلم المتعلمين التفكير النقدي؟

إذ يمكن وضع أخلاقيات المناقشة وسيلة لذلك، عندما يدخل المتعلمين في حوار عقلاني وأخلاقي؛ وفق قواعد المناقشة التي تمكنهم من اكتساب المهارة النقدية بواسطة إدماج موضوع فلسفي معين، أو وضعية مشكلة مناسبة للفئة المستهدفة التي تتكون من عدة متعلمين متحاورين، بداية باتخاذ موقف معين حول الموضوع الفلسفي المطروح كطبيعة العلاقة مع الغير التي تنقسم إلى موقفين؛ الأول القائل بضرورة وجود الغير، والثاني

25. الحبيب استاني زين الدين، تجليات التفكير النقدي بالوسط المدرسي وصعوبات تفعيله: حالة الدرس الفلسفي، مجلة علوم التربية، العدد الرابع والسبعون-مارس2021م، ص. 74

26. المرجع نفسه، ص. 73

27. المرجع نفسه، ص. 73

الذي لا يبالي بوجود الغير. لكن وجب على المتعلمين تبرير مواقفهم التي اختاروها بكامل حريتهم، ويتحملون اتجاهها كامل المسؤولية ما دامت لهم السلطة الإبستمية؛ فإن جميع المتعلمين يملكون الحق نفسه في التعبير عن مزاعمهم، بشرط تبرير تلك المزاعم؛ لأنه حسب هابرماس «**ملزم بتقديم الحجة على ما يقول والبينة على من ادعى إذا وجب ذلك**»[28]، حيث وجب على كل متعلم تبرير مزاعمه بواسطة حجج منطقية كافية، وتبريراته وجب أن تكون محتكمة لعدة شروط، منها أن يكون القول أو التبرير حقيقيا، وليس بواسطة حكايات خيالية كمثال، وإنما وجب تقديم أمثلة واقعية موجودة فعليا، كما أكد ذلك هابرماس من خلال قوله التالي: «**يتعلق الافتراض الثاني: بحقيقة مضمون القول «التي تضمن وظيفيا وصف حالة واقعة موجودة وغير مستوحاة من الخيال، أو بالقدر الذي يفترض فيه أيضا وجود وقائعها ومن ذلك حقيقة الأفعال التقريرية»**»[29].

كما لا ننسى الجانب اللساني في هذه الممارسة الحجاجية، المتمثل في كيفية إدراك المعاني المقصودة من قول المتحاورين داخل الفصل الدراسي، عند استعمال عبارات لغوية تحمل نفس المعنى عند كل المتعلمين، وبالمراعاة لما يسمى بـ«ألعاب اللغة» كما جاءت عند فتغنشتاين، والغرض منها فهم العبارة أو القول الذي أدلى به المحاور، لجعل العبارة ذات معنى واحد بالنسبة إلى المتحاورين ضمن سياق تربوي معين؛ الشيء الذي يساعد المتعلمين على فهم بعضهم البعض، وفهم مقاصد أقوالهم وإيحاءاتهم المضمرة ضمن الكلام، أو عن طريق التأويل المباشر لتلك العبارة حسب الجماعة الفصلية؛ بغاية إدراك الاختلافات الموجودة بينهم، والانفتاح على الآخرين وتأويلاتهم المختلفة؛ الشيء الذي يجعلهم أقل تمسكا بعقائدهم الدوغمائية.

أيضا، يجب أن يكون القول أو المزاعم المعبر عنها من طرف المتعلمين صادقة؛ أي أن يعبر عنها بشكل واضح وخال من أي لبس، أو المغالطات التي يتم استعمالها بغاية التأثير على الآخر والسيطرة عليه؛ وذلك من خلال تجنب الإطناب في الكلام؛ لأن التعبير عن الموقف يتطلب أن يكون موجزا، دون أن نوقع عليه لمسات من التضليل والتغليط الذي يكون بغاية السيطرة والهيمنة على المتعلمين الآخرين، وهو ما يؤكده هابرماس بقوله: «**صدقية ما يقال، بالقدر الذي يسمح به للمتحدث عن التعبير عن نوايا محدودة وبطريقة صادقة بعيدة عن التضليل والكذب ومن دون سفسطة**»[30]. بناء عليه، نجد مسألة مصداقية القول التي تهتم بوجود تلك المزاعم التي يعبر عنها المتعلمين ضمن محيطهم الاجتماعي؛ الشيء الذي يساعدهم على تفعيل الفكر داخل محيطهم؛ واكتساب مهارة النقد الذاتي لما يواجهون من مواقف في حياتهم اليومية، ولكل المزاعم التي أصبحت مشروعة في محيطهم. كل هذه القواعد تقود المتعلمين إلى إجماع عند نهاية مناقشتهم، وهذا الإجماع لا يعني أنه يجب التمسك بتلك الفكرة بشكل دوغمائي؛ وإنما من المحتمل النقاش حولها مجددا عندما يقدم في حقها نقد.

---

28. أبو النور حسن، أبو النور حمدي، يورجين هابرماس الأخلاق والتواصل، مرجع سابق، ص. 254
29. المرجع نفسه، ص. 254
30. المرجع نفسه، ص. 255

نستنتج أن أخلاقيات المناقشة ضرورية لتحقيق تربية نقدية، ولإضفاء الحس النقدي على طابع المتعلمين. تفعيلا للإصلاحات المتوالية على المنظومة التربوية، التي عملت على تجاوز التعلم التقليدي الذي يقوم على تلقي المعلومات، إلى التعلم النشيط الذي يقوم على مدى اكتساب المتعلم لعدة مهارات، يمكنه توظيفها في حياته اليومية، وعلى رأسها التفكير النقدي الذي يتم عبر ضبط قواعد التفكير والتعبير، كما حددها هابرماس في عدة قواعد هي كالتالي: الحرية، المساواة، الصدق، حقيقة القول، المصداقية، التبرير... باعتبارها كيفية لاكتساب وضبط آليات الحوار النقدي بين المتعلمين، وحثهم على اكتساب مهارات بدل المحتويات.

2- أخلاقيات المناقشة والتواصل التربوي الفعال

يشمل التواصل عدة مجالات إنسانية نظرا إلى طبيعة الإنسان الاجتماعية التي تفرض عليه الدخول في عدة تفاعلات مع الآخرين؛ لأنه لا يستطيع أن يعيش منعزلا عن أقرانه. والتواصل هو «**مجموع العلاقات والتفاعلات التي تنسج بين مرسل ومتلق لتداول رسائل لفظية أو إشارية أو أيقونية بواسطة قناة مشفرة وانطلاقا من إطار مرجعي مشترك بين المتواصلين**»[31]. ومن المجالات التي يحدث فيها هذا التواصل بشكل بارز، نجد المجال التربوي الذي تحضر فيه عدة تفاعلات تربوية وتواصلية بين الفاعلين ضمنه؛ لأن هذا المجال يحتوي على مجموعة من الأشخاص مجبرون على التواصل فيما بينهم نظرا لطبيعة العلاقات الإنسانية، ومن أبرز هذه العلاقات نجد علاقة المدرس بالتلميذ، وعلاقة التلميذ بتلميذ آخر، والعلاقات القائمة بين المدرس وجميع تلاميذه، وعلاقات التلميذ بزملائه داخل الفصل أو المجال التربوي ككل، أو العلاقات الموجودة بين جميع الفاعلين داخل المؤسسة التربوية. هنا نتحدث عن «التواصل التربوي» الذي يظهر على شكل نموذجين، كما ذكرها ميلود توري، أولا النموذج القبطانيLe modèle Cebérnitique الذي «**يركز على الكيفية التي ينتقل بها الخطاب من المرسل الى المتلقي أي يهتم بما يسمى شكلنة التواصل Formalisation de la communication، في حين يهمل هذا النموذج الظروف التي يتم فيها التواصل كالبعد العاطفي ومقومات الماضي والحاضر والمستقبل. ومن أوائل رواد هذا النموذج نوربر ويرنر Norber Wirener**»[32]. فهو نموذج تواصلي يهتم بالطريقة التي يتم بها التواصل بين مرسل ومتلقٍّ، ولا يهتم بالسياق المؤطر لتلك العملية التواصلية كالحالة العاطفية لأطراف الحوار، أو مدى استعدادهم للتواصل مع الآخر.

بالإضافة إلى -ثانيا- النموذج النسقي Le modèle systémique، بوصفه «**نموذج شمولي يتجاوز حدود مكونات اللقطة التواصلية التي ركز عليها النموذج القبطاني وصاغها لاسويل.Lassell في تساؤلاته التالية: من يقول؟، ماذا يقول؟، لمن؟، لأيّ نتيجة؟ qui dit? Quoi ?à qui ?par quel moyen ?avec quel effet ?**»[33]. فهذا النموذج التواصلي نجده أخذ بعين الاعتبار كل الجوانب المكونة للعملية التواصلية، المتمثلة

31. ميلود توري، أسس التكوين التربوي، مرجع سابق، ص. 120
32. المرجع نفسه، ص. 125
33. المرجع نفسه، ص. 125

في المرسل الذي يتميز بتصورات خاصة به، سواء من ناحية مرجعياته السياسية والدينية والثقافية وكل المعارف التي كونها خلال حياته، وكذا حالته العاطفية التي تشمل كل الأحاسيس والمشاعر التي هو عليها في لحظة التواصل. وأيضا التصور الذي كونه عن الآخر (المتلقي) وعن العالم ككل، بالإضافة إلى نظرة المدرس لهدف العملية التواصلية الذي يظهر على نحوين، الأول هو محاولة التواصل مع المتعلمين بغرض كسر الوقت إلى أن يدق الجرس، والثاني يهتم فيه المدرس بخلق تواصل تربوي فعال لبلوغ هدف تعلمي.

وترتبط العوامل الأساسية بنجاح التواصل عند المتلقي بنفس العوامل التي يتميز بها المرسل، منها خلفياته ومعارفه، وتصوره للعالم وللآخر. إضافة إلى مدى استعداد المتلقي للإرسالية، وهنا يمكن إدراج ما يسمى بـ «البعد العاطفي» في عملية التعلم، فهذا البعد يمكن المتعلم من حيازة حالة استعداد جيدة، تمكنه من تلقي كل الموارد الخاصة بالمادة الدراسية، نظرا لتأثره وإعجابه بشخصية مدرسه. وكذلك يرتبط نجاح هذه العملية التواصلية بمدى قدرة المتعلم على فك الترميز Décodage، سواء كان كتابة أو عبارة عن ألفاظ شفوية أو صور أو إشارات أو تلميحات؛ أي قدرته على تجاوز صعوبة الترميز ليكون تواصلا شفافا بينهما، في حالة كانت هناك صعوبة في فك الترميز؛ لأن هذا الأخير قد يكون مفصحا عن نفسه، ويشترط أن يتوفر على بيئة ملائمة وخالية من المعيقات كالتشويش. وبالتالي، نجد أن هذا النموذج التواصلي يهتم بكل الجوانب المؤثرة في عملية التواصل؛ أي إنه ينظر إلى التواصل في كليته وشموليته بما هو نسق عام، يتضمن أولا: «**المضمون بما هو حمولة الأفكار والمعارف والمعلومات التي تتضمنها الإرسالية**»[34]. وثانيا: العلاقة البينذاتية التي تنتج بين الفاعلين داخل العمليات التواصلية، التي تجعل كل واحد منهما يكون نظرة خاصة عن الآخر، سواء كانت سلبية أو إيجابية، انطلاقا من تلك المعطيات الماضية لهما يستطيعان بناء لقطة تواصلية فيما بعد، سواء كانت فاشلة نظرا لمواجهتها عائق متمثل في تجربة سابقة سيئة. أما إذا مر المتعلم من تجربة تواصلية إيجابية، فإنها ستعزز قدرته واستعداده للإقبال على تجربة أخرى. كما لا ننسى تأثير اللحظة الحالية لعملية التواصل؛ أي ظروف حدوثه الراهنة، وكذلك الآمال والتوقعات وأهداف التواصل، بوصفها معطيات مرتبطة بالمستقبل؛ أي تأثيره على المتلقي أو النتيجة المتوخاة منه.

ونميز في النماذج التواصلية الصفية بين النموذج الصفي التقليدي الذي يتمركز حول المعلم، بصفته مالكا للمعارف وللفضائل الأخلاقية التي يرسلها للمتعلمين دائما، عبر التواصل الصفّي القائم على تسلط المعلم، مع إقصاء دور المتعلم الذي يكون في هذه الحالة مجرد وعاء فارغ، يشحن بكل ما يقدم معلمه له سواء كانت معارف أو فضائل أخلاقية... التي يخضع لها المتعلم بالضرورة دون الاهتمام بآرائه ورغباته؛ لأنه شخص شرير بطبعه يجب أن يمنع من التعبير عن آرائه؛ لأنه نموه المعرفي والأخلاقي لم يكتمل بعد. وهنا تكون العملية التواصلية عمودية وسلطوية؛ تجعل المتعلم يقبل آراء المعلم تحت وطأة الإذعان، حيث يغيب عن هذه العملية الاهتمام بآراء واختيارات المتعلم، وكذا التشجيع على الإبداع والابتكار؛ لأنها تفتقد لمسألة المساواة

34. المرجع نفسه، ص. 126

التي تحضر ضمن أخلاقيات المناقشة، بوصفها نموذجا تواصليا فعالا، يقوم أساسا على مبدأ المساواة في حق المتفاعلين داخل الحوار، عند التعبير عن آرائهم ما دموا يتمتعون بالسلطة الإبستمية، كما يذكر هابرماس أن «**كل مشارك فرد حر فيما يقوم به ما دام يحوز على السلطة الإبستمية في صيغة المتكلم، والتي تسمح له باتخاذ موقف من المواقف**»[35]، التي تعطي الحرية لجميع الأفراد المشاركين في عملية التواصل التربوي؛ لأنهم قادرون على تبرير المواقف التي اتخذوها بشكل عقلاني وكافي، كما أكد على ذلك هابرماس في أخلاقيات الفعل التواصلي، بقوله إن كل مناقش هو «**ملزم بتقديم الحجة على ما يقول والبينة على من ادعى إذا وجب ذلك**»[36]. فهي قواعد عقلية أخلاقية نستطيع من خلالها خلق تواصل فعال وديمقراطي بين جميع الفاعلين؛ لأن تلك القواعد عقلانية، والعقل قسمة عادلة بين الجميع. وبالتالي، وجب أن يسلم بها كل إنسان عاقل؛ لأن كل رفض لها هو انسحاب فوري من جماعة الكائنات العقلية، كمبدأ الصدق الذي يهتم بطبيعة القول، أي مدى وضوحه وغياب أي لبس أو تغليط قد يحذوه؛ بمعنى أن يكون قوله دقيقا وموجزا عند تجنبه الإطناب. ومبدأ المعقولية الذي يتم من خلال تركيب الجملة تركيبا صحيحا يناسب قواعد اللغة المستعملة، خاصة اللغة العادية التي ركز عليها هابرماس؛ لأنها تساعد على فهم مقاصد القول من خلال طريقة التعبير أو التلميحات والإيحاءات، وكذا الحضور الاجتماعي لذلك التعبير كالنكت والعبارات الشعبية التي يكون معناها مغايرا عند تغيير سياق استعمالها، انطلاقا مما يسمى بـ «ألعاب اللغة».

وفي ظل الاختلافات اللغوية والثقافية الموجودة في هذا السياق، نؤكد على ضرورة الانفتاح على الآخر من خلال مسألة التأويل. أما المبدأ الذي يقوم على مدى حقيقة القول، فيفترض وجود تعبيرات عن أشياء حقيقية فعلا، كوصف واقعة موجودة أو طرح أمثلة حية، ووضعيات ضمن العالم المعيش، ليتم هذا التواصل التربوي وفق أسس عقلانية كونية بين جميع الفاعلين؛ غايته بلوغ «الإجماع» حول فكرة تحظى بالمقبولية العقلية عند الجميع، بناء على توافق الكل واتفاقهم. والمهم هنا هو تأكيد هابرماس على مسألة الانسجام، ونبذه لكل مظاهر العنف والصراع التي تسود العالم، خصوصا المجال التربوي الذي يسود فيه نوع من الهيمنة والسيطرة، وممارسة السلطة من طرف جميع الأفراد كيفما كانت صفتهم. لذلك وجب النظر إليها كمشكل يعيق تنمية المؤسسة التربوية المغربية، ومحاولة معالجتها من خلال التحلي بأخلاقيات المهنة للرقي بالمنظومة التربوية والمؤسسات التربوية؛ وذلك من خلال خلق أكبر قدر ممكن من فرص التواصل الفعال بين جميع الفاعلين، بالاعتماد على أخلاقيات المناقشة الهابرماسية نموذجا، بوصفه نموذجا أخلاقيا قائما على التذاوت وخلق الانسجام.

كما يذكر هابرماس «**إننا لم نحمل ممارسة الفضيلة المعرفية الخاصة بالتقرب إلى الغير إلا بوصفنا مشاركين في حوار شامل يهدف من بين ما يهدف إلى الوصول إلى إجماع معين؛ وذلك بسبب الاختلافات المتبادلة التي تتحلى بخاصة في الإدراك الخاص بالحالات المشتركة**»[37]. إن هذا النموذج يهتم بمسألة الانسجام والتفاهم كمسألة

35. يورغن هابرماز، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، مصدر سابق، ص. 26

36. أبو النور حسن، أبو النور حمدي، يورجين هابرماس الأخلاق والتواصل، مرجع سابق، ص. 254

37. يورغن هابرماز، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، مصدر سابق، ص. 22

أخلاقية تساهم في خلق نوع من التعايش مع الآخر المختلف؛ لأن التذاوت أو الرغبة في حصول الانسجام يقتضي الخضوع ذاتيا للآخر؛ مما يعني تجاوز الانغلاق حول الذات إلى الانفتاح والتواصل مع الآخر؛ لأن التفاعل يشكل مجالا خصبا للأفكار، وينتج عالم مفتوح على كل الاحتمالات والممكنات. فقد يكون هذا الانفتاح على الآخر بكل آرائه وتصوراته الخاصة، بمثابة زحزحة للكبرياء الخاص بأحدهم، مما يجعل الإنسان يحاول أن يكون دائما على حق ليشعر بالتقدير الذاتي. وبالتالي، فإن كل الفاعلين التربويين في حاجة دائمة للتواصل؛ لإدراك أخطائهم ومحاولة تخطيها دوما بفضل التذاوت مع الآخرين داخل مناقشة ما، سواء ضمن المجال العام أو المجال التربوي؛ وبالأحرى لأنه يجعل كل من المعلمين والمتعلمين على أهبة للاستفادة من بعضهم البعض عند التذاوت؛ بغاية تطوير الجوانب المعرفية والأخلاقية والوجدانية لكل منهما. فهي محاولة عبور من النماذج التواصلية التقليدية، التي تقوم على علاقة سلطوية عمودية مؤسسة على تعبئة الموارد المعرفية والأخلاقية، لتنتج بذلك مجتمع من المستهلكين يتلقون المعارف، ويتم تعبئتهم بالقيم الأخلاقية داخل المدرسة، وهي المسألة (تعبئة الأخلاق) التي اعتبرها إيفان إيليش IVAN ILLICH مجرد أسطورة في كتابه «مجتمع بدون مدرسة Une société sans école»، إلى علاقة تفاعل وانسجام وتبادل بين كل الفاعلين، عند إجرائهم لمناقشة فعالة؛ لأنها تمكنهم من بلوغ علاقة تواصلية ذات طبيعة تفاعلية إيجابية، تتساوى فيها الأدوار بين المعلم والمتعلم، إذ كلاهما يكون مرسلا ومتلقيا في نفس الوقت. وهكذا يكون هذا النموذج القائم على أخلاقيات المناقشة بمثابة «**إعادة النظر في مقاربتنا، وفي الطرائق المتبعة في المدرسة، للانتقال من منطق تربوي يرتكز على المدرس وأدائه، مقتصرا على تلقين المعارف للمتعلمين، إلى منطق آخر يقوم على تفاعل هؤلاء المتعلمين، وتنمية قدراتهم الذاتية، وإتاحة الفرص أمامهم في الإبداع والابتكار، فضلا عن تمكينهم من اكتساب المهارات، والتشبع بقواعد التعايش مع الآخرين، في التزام بقيم الحرية والمساواة، واحترام التنوع والاختلاف**»[38].

وفي الأخير يمكن القول، إن لأخلاقيات المناقشة دورا مهمًّا في تحقيق تواصل تربوي فعال؛ لأنها تقوم على تفاعل إيجابي بين الفاعلين ضمن هذه العملية التواصلية التربوية؛ وغايتها تجاوز التفاعلات الصفية القائمة على السلطة والهيمنة؛ لأنها تساهم في نشر الصراع والعنف داخل المجال التربوي؛ الشيء الذي سيجعله في حاجة إلى التحلي بأخلاق التواصل؛ لتكون المناقشة متكافئة بين جميع الأطراف المتفاعلة فيما بينها؛ وذلك بإدماج الجانب الأخلاقي في شخصية الفاعلين عبر الالتزام بعدة قواعد عقلية كونية، تسهم في توحيد وانسجام الإنسانية جمعاء، لننعم بحياة خالية من التنازع والصراع إلى حد ما.

38. مقتطف من الخطاب الملكي الذي ألقاه الملك محمد السادس بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب لسنة 2012، الرابط:
https//:youtu.be/hNBUQDS6K6g?si=AqRBsda_ma50qqlG

خاتمة:

نستخلص فوق ما تقدم، أن مفهوم «التواصل» يحظى بأهمية بالغة في فلسفة هابرماس؛ لأن التواصل أساس جميع التفاعلات الإنسانية التي نحظى بها، خاصة التواصل الذي يتم عبر اللغة، انطلاقا من إدماج القواعد العقلية الأخلاقية التي جاء بها مفهوم «العقل التواصلي» ضمن الممارسة الحجاجية، وذلك للقضاء على كل مظاهر الهيمنة التي أفرزها كل من العقل الأداتي والعقل التقني، المتمثلة في توجيه آراء الأفراد بواسطة الوسائل التقنية إلى مصالح الجهة المهيمنة، بل يجب جعل فضاء المناقشة فضاء لتبادل الآراء ونقدها إلى حدود بلوغ «الإجماع»، وهذا ما يسميه هابرماس ب «الفضاء العام» الذي يصنع السلطة وفق نتيجة التجربة التواصلية التي مر منها الأفراد.

وبالنظر إلى المجال التربوي أيضا، نجد عدة مظاهر للصراع والعنف سواء المادية أو المعنوية التي تمارس ضمن هذا الفضاء من طرف عدة فاعلين بغاية الحصول على امتيازات خاصة والهيمنة على الفئات الأخرى، بل يجب أن يكون فضاء للنقاش العمومي والتواصل أيضا، بشكل يضمن المشاركة الجماعية المتساوية للجميع والمبنية على قواعد عقلية وأخلاقية، نتجاوز بواسطتها تلك الصراعات السلبية المؤدية إلى إذابة الابتكار والإنتاج، ليكون المجال التربوي مجالا للانفتاح والتواصل عند الالتزام بأخلاقيات المناقشة في هذا الفعل التواصلي الحر، كما تسهم في خلق وتطوير المهارات النقدية للمتعلم حين ينظر له كفاعل حر ضمن العملية التواصلية، وليس مجرد منفعل كما في النماذج التواصلية التقليدية.

المصادر والمراجع:

***- المصادر:**

- يورغن هابرماس، إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقة، ترجمة وتقديم: عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة-الجزائر، الطبعة الأولى 1431هـ -2010م.

- يورغن هابرماس، العلم والتقنية كـ«إيديولوجيا»، ترجمة: حسن صقر، منشورات الجمل، كولونيا-ألمانيا الطبعة الأولى، 2003م.

- يورغن هابرماس، المعرفة والمصلحة، ترجمة: حسن صقر، ومراجعة: إبراهيم الحيدري، منشورات الجمل، كولونيا-ألمانيا، الطبعة الأولى، 2001م.

***- المراجع:**

- أبو النور حسن، أبو النور حمدي، يورجين هابرماس الأخلاق والتواصل، إشراف: أحمد عبد الحليم عطية، المكتبة الفلسفية، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، 2012م.

- الحبيب استاني زين الدين، تجليات التفكير النقدي بالوسط المدرسي وصعوبات تفعيله: حالة الدرس الفلسفي، مجلة علوم التربية، العدد الرابع والسبعون-مارس 2021م.

- عبد الإله بوغابة، بشرى العروصي، الإطار التداولي في اللسانيات المعاصرة، المطبعة السريعة، القنيطرة-المغرب، الطبعة الأولى، 2006م.

- مانفريد فرانك، حدود التواصل الإجماع والتنازع بين هابرماس وليوتار، ترجمة وتقديم وتعليق: عز العرب الحكيم بناني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، 2003م.

-محمد سبيلا، مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 2009م.

- محمد عبد السلام الأشهب، أخلاقيات المناقشة وفلسفة التواصل، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، الطبعة الأولى، 2003م.

- محمد نور الدين أفاية، الحداثة والتواصلي في الفلسفة النقدية المعاصرة نموذج هابرماس، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب، الطبعة الثانية 1998م.

- ميلود توري، أسس التكوين التربوي، الرباط-المغرب، مطابع الرباط نت، 2016م.

***- المقالات والدراسات:**

- أوليفيي سارتونار، التفكير النقدي والثقافة العلمية والممارسة الفلسفية الجديدة، ترجمة: عبد الله كسابي، مؤمنون بلا حدود، 2023

***- المراجع الالكترونية:**

- مقتطف من الخطاب الملكي الذي ألقاه الملك محمد السادس بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب لسنة 2012، الرابط:

ma50qqlG_AqRBsda=si?hNBUQDS6K6g/be.youtu//:https

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com